القسم الثانى

-١-

مـوجـز

* * *

لايمكن دفع الجزء التالى من هذا البحث إلى العالم دون شروح مطولة واعتذارات، لأنه ليس إلا تكراراً أميناً وحرفياً فى الكثير منه الجزء الأول فيما عدا أن بعض الفحوص النقدية قد كثُفت، وهناك إضافات تشير إلى مشكلة كيف ولماذا تطورت شخصية الشعب اليهودى بالشكل الذى تطورت به. وأعرف أن هذه الطريقة فى تقديم موضوعى ليست بذات أثر كما أنها ليست فنية، ولاأوافق أنا نفسى عليها من كل قلبى، فلماذا لم أتنكبها؟ والجواب على هذا السؤال يسهل علىّ أن أعثر عليه، ولكنه صعب بالأحرى أن أعلنه، وأنا لم أستطع أن أمحو آثار الطريقة غير العادية التى حدث أن كُتب بها هذا الكتاب.

والحقيقة أنه قد أعيدت كتابته مرتين، وكانت المرة الأولى منذ سنوات قليلة فى ڤيينا ولم أكن هناك أعتقد فى إمكان نشره، وقررت أن أنحيه، ولكنه ظل يطاردنى كشبح لايهمد، واتخذت لنفسى طريقاً وسطا بأن نشرت جزءين من الكتاب، كل جزء على حدة، فى المجلة الدورية «إيماجو». وكان هذان الجزءان بمثابة نقطة البداية فى التحليل النفسى الذى التزمت به فى الكتاب كله، والجزءان هما «موسى مصرى»، والبحث التاريخى المبنى عليه «إذا كان موسى مصريا». أما الباقى والذى ربما يتضايق منه البعض، وقد تكون فى نشرة بعض المخاطرة، وكان تطبيقاً لنظريتى فى نشأة التوحيد وتفسيرى لظاهرة الدين، فقد نكصت عن نشره كما تراءى لى، على أن يكون ذلك للأبد. ثم جاء الغزو الالمانى غير المتوقع فى مارس سنة ١٩٣٨، واضطرنى إلى مغادرة بيتى، ولكنه كذلك حررنى من الخوف خشية أن يتسبب نشرى للكتاب فى تحريم التحليل النفسى فى بلد مايزال يسمح بممارسته. ولم أكد أصل إلى انجلترا حتى وجدتُ إغراء إطلاع العالم على معلوماتى التى حبستها عنه شيئاً لايقاوم. وهكذا بدأت فى إعادة كتابة الجزء الثالث من بحثى، ليتبع الجزءين اللذين

سبق نشرهما. وقد تطلّب ذلك بالطبع أن أعيد تجميع المادة، حتى ولو جزء منها، ولم أنجح مع ذلك فى تضمين المادة كلها فى هذه المحاولة الثانية الجديدة لإعادة كتابته. ومن ناحية أخرى لم أستطع أن أستقر على رأى من جهة استبعاد الجزءين اللذين سبق أن أسهمت بهما استبعاداً تاماً، وهكذا كان الطريق الوسط الذى آليت فيه على نفسى أن - أضيف بدون تغيير - النسخة الأولى من البحث كاملة إلى النسخة الثانية، وهى طريقة يعيبها التكرار الواسع.

وقد أجد عن حق راحةً فى أن أعتقد أن المادة التى عالجتُها كانت جديدة كل الجدة ولها دلالتها - بصرف النظر عما إذا كان تقديمى لها قد تم بطريقة صحيحة أو مغلوطة - فإذا كان الناس سيضطرون إلى قراءتها مرتين، مرة فى الجزء الأول الأصلى، ومرة فى الجزء الثانى المكرر، فإن ذلك لن يكون إلا سوء حظ بسيط، فهناك أشياء ينبغى أن تقال أكثر من مرة، ولايمكن تكرارها بالكثرة الواجبة. ومع ذلك فالأمر متروك للإرادة الحرة للقارئ، ماإذا كان يحب أن يتوقف مع الموضوع أو يعود إليه. ولاينبغى أن نستخلص نتيجة نهائية ونبرزها بالحيلة الماكرة التى تقضى بعرض نفس الموضوع مرتين على القارئ فى كتاب واحد، ولو فعلنا ذلك لدللنا على أنى كاتب غير قدير وأستحق أن أُلام على ذلك، ومع ذلك فقوة الكاتب الإبداعية لاتطاوع دائماً نيته الطيبة، والعمل يكبر كما يريد، وأحيانا مايواجه مؤلفه كعمل مستقل وحتى كخَلْقٍ غريبٍ عليه.

✠ ✠ ✠

-٢-

شعب إسرائيل

إذا كان واضحاً فى عقولنا كل الوضوح أن منهجاً كالمنهج الحالى - وهو القائم على أخذ مايبدو مفيداً ونبذ مايبدو غير مناسب من المادة المأثورة التقليدية، ثم وضع النتف بذاتها إلى جوار بعضها البعض طبقاً لما فيها من احتمال نفسى - لا يقدم أى شئ يمكن أن يضمن العثور على الحقيقة، فإن الذى يسأل عن السبب الذى بُذلت من أجله مثل هذه المحاولة له الحق كل الحق. وللإجابة على هذا يجب علىّ أن أسرد النتيجة. فإذا كنا نقلل بشكل ضخم من المطالب الحادة التى تشترط عادة لعمل بحث تاريخى ونفسى، فإنه قد يكون من الممكن أن نوضح المشاكل التى كانت دائماً تبدو جديرة بالاهتمام، والتى

تفرض نفسها مرة أخرى على ملاحظاتنا نظراً للأحداث الحالية. ونحن نعرف أنه من بين كل الشعوب التى عاشت فى الزمن القديم فى حوض البحر الأبيض ربما **كان الشعب اليهودى هو الشعب الوحيد الذى مايزال يوجد اسماً**، وربما كذلك طبيعةً فلقد تحدى سوء الطالع وسوء المعاملة بقوة لامثيل لها فى المقاومة، واكتسب صفات خاصة، وكسب بشكل عارض الكراهية القلبية لكل الشعوب. وإن الإنسان ليحب أن يفهم فهماً أكثر وعياً من أين جاءت هذه المقاومة التى يتحلى بها اليهودى، وكيف يرتبط تكوينه الخلقُى بمصيره.

وقد نبدأ من صفة خُلُقية لليهود تحكم علاقتهم بالشعوب الأخرى، ولاشك أن اليهود يحتفظون بفكرة عالية عن أنفسهم، ويعتقدون أنهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى، وأكثر تقدماً من الآخرين الذين تفصلهم عنهم عادات كثيرة لهم(1). بالإضافة إلى ذلك فإن ثقة خاصة بالحياة تملأهم، كالتى يضفيها الامتلاك الغامض لموهبة، وهى نوع من التفاؤل، يطلق عليه المتدينون **الثقة فى الله**(2).

ونحن نعرف سبب مدافعتهم ذاك، وماهو كنزهم الثمين، فهم **يصدّقون فى الواقع، مايقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار، ويؤمنون بأن الله قد قرّبهم منه بصفة خاصة**، وهذا هو مايملأهم فخراً وثقة. وتقول كتب التاريخ الموثوق بها إن اليهود كانوا يتصرفون فى أيام اليونان والرومان مثلماً يتصرفون الآن، فالطابع اليهودى لذلك كان حتى فى ذلك الوقت مثلما هو الآن. ولقد استقبل الإغريق الذين عاش اليهود بينهم ومعهم الخصائص اليهودية بنفس الطريقة التى يقابلها بها «مضيفوهم» اليوم. ولقد يظن المرء أنهم يتصرفون كما لو كانوا هم أيضاً يعتقدون فى الأفضلية التى يدّعيها الإسرائيليون لأنفسهم، فعندما يقال إن أحد الناس هو الابن المفضل للأب المرهوب الجانب، فلا حاجة إلى إبداء الدهشة من غير إخوته الآخرين وأخواته. ويتضح بشكل رائع مايمكن أن تؤدى إليه هذه الغيْرة فى الأسطورة اليهودية عن يوسف وإخوته. ويبدو أن

1- وينبغى قراءة الإهانة التى كانوا يقذفون بها كثيراً فى العصور القديمة بأنهم مجنومون (مانيثو) باعتبارها إسقاطا معناه «إنهم ينأون عنا كما لو كنا مجنومين». (فرويد)

2- لأكثر من مرة نلاحظ المباهاة العنصرية التى ينتحلها فرويد مع أنه من المفروض أنه محلل نفسى وكان أحرى به أن يكون موضوعيا. (الحفنى)

المجرىَ التالى الذى اتخذه تاريخ العالم يبرر هذا الغرور اليهودى، لأن الله عندما وافق فيما بعد أن يرسل مسيحاً ومخلصاً إلى البشرية، اختاره مرة أخرى من بين الشعب اليهودى، وكان يحق للشعوب الأخرى حينئذ أن تقول : إنهم على حق فعلاً؛ إنهم شعب الله المختار[1]. وحدث بدلاً من ذلك أن الخلاص عن طريق يسوع المسيح لم يجلب على اليهود إلا كراهية أقوى، بينما لم يستفد اليهود أنفسهم من هذا البرهان الثانى على إيثار الله لهم، لأنهم لم يعترفوا بالمخلّص.

وقد نقول بناء على قوة ملحوظاتنا السابقة أن **الإنسان موسى هو الذى وسم الشعب اليهودى بهذه السمة**، وهى السمة التى صارت ذات أهمية بالغة لهم لكل زمن. ولقد زاد موسى من ثقتهم بأنفسهم بأن أكّد لهم أنهم شعب مختار، وأعلنهم شعباً مقدساً وألقى عليهم بواجب اعتزال الشعوب الأخرى[2]. ولايعنى ذلك أن الشعوب الأخرى من ناحيتها كانت تعوزها الثقة بالنفس، فلقد كان كل شعب فى ذلك الوقت كما هو الآن يظن نفسه أسمى من كل الشعوب الأخرى. وعلى كل فلقد استقرت الثقة بالنفس لدى اليهود عن طريق موسى فى الدين، وصارت جزءاً من اعتقادهم الدينى. وبالعلاقة اللصيقة لصوقاً خاصاً بإلهم اكتسبوا جزءاً من عظمته. وحيث أننا نعرف أنه خلف الإله الذى اختار اليهود وخلّصهم من مصر كان يقف الإنسان موسى، الذى حقق هذا العمل، بأمر الله كما يبدو، فإنه ليمكننى القول : إنه كان إنساناً واحداً، هو الإنسان موسى، هو الذى خلق اليهود، وله يدين هذا الشعب بصلابته على تحمّل الحياة، وله كذلك يدين بكثير من العداء الذى التقى به والذى مايزال يلتقى به.

✠ ✠ ✠

١- لاحظ الطريقة الدعائية المكشوفة التى يحاول بها فرويد أن يقول مايؤمن به على لسان الإغريق. (الحفنى)

٢- لم يقل موسى عليه السلام ذلك، ولكنه كان فعل أحبار إسرائيل، والقرآن يصف ذلك فى بلاغة فيقول :«فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون» (الآية ٧٨ سورة البقرة). (الحفنى)

-٣-

الإنسان العظيم

✠ ✠ ✠

كيف أمكن لإنسان واحد بمفرده أن ينمّى مثل هذا التأثير غير العادى، لدرجة أنه يستطيع أن يخلق من أفراد وأسر مختلفة شعباً «واحدا»، وأن يستطيع أن يطبع هذا الشعب بشخصية محددة، وأن يحدد مصيره لألف سنة قادمة؟ أليس تصوراً كهذا نكوصاً إلى طريقة التفكير التى أنتجت أساطير الخلق وعبادة البطل، وإلى الأزمنة التى استنفدت فيها الكتابة التاريخية نفسها فى سرد تواريخ الحياة لأفراد معينين - ملوك أو فاتحين؟ ولكن الأزمنة الحديثة تميل أكثر إلى إرجاع أحداث التاريخ الإنسانى إلى عوامل أكثر إضمارا وعمومية ولاشخصية - مرجعها الأثر القوى الذى يفرض نفسه للظروف الاقتصادية والتغيرات فى الموارد الغذائية، والتقدم فى استخدام المواد والأدوات، والهجرات التى تسببها الزيادة فى السكان والتغير فى المناخ. وفى تلك العوامل لايلعب الأفراد أى دور آخر بخلاف دور العارضين أو الممثلين للميول الجماعية التى لابد أن تعبر عن نفسها، والتى وجدت ذلك التعبير كما هو بالصدفة فى أمثال هؤلاء الأشخاص.

هذه وجهات نظر صحيحة جداً، ولكنها تذكّرنا بالبوْن الشاسع بين طبيعة جهازنا الفكرى وبين تنظيم العالم الذى نحاول أن ندركه. وتُشبَع حاجتنا الملحة للسبب والنتيجة عندما يكون لكل عملية سبب واحد ظاهر، غير أن الأمور فى الواقع لاتسير حولنا على هذا المنوال تماماً، فكل حادثة تبدو مقدّرة بشكل مغالى فيه ويتضح أنها النتيجة لعدد من العلل المتداخلة. وعندما تفزع الباحث التعقيدات التى لاعدّ لها من الأحداث فإنه يستسهل أن يناقض مجموعة منها بمجموعة أخرى، ويشترط لها تناقضات لاوجود لها يخلقها خلقاً بمزيد من التعقيدات التى يستحدثها استحداثاً (١).

فإذا كان التحقق لذلك من حالة واحدة خاصة يظهر الأثر البارز لشخصية إنسانية

١- إنى لأحاذر مع ذلك من سوء فهم محتمل، فأنا أعنى أن أقول أن العالم من التعقيد لدرجة أن كل حكم ينبغى أن يصيب الحقيقة فى مكان ما. أبداً، فإن تفكيرنا قد حفظ حرية اختراع علاقات وروابط لامثيل لها فى الواقع، ومن الواضح أنه يعلى من شأن هذه الموهبة فيه، أى أنه يستخدمها على نطاق واسع - داخل وكذلك خارج العالم مجال العلم. (فرويد)

واحدة، فإن ضميرنا لايحتاج إلى إلقاء اللوم علينا لأننا من خلال قبول هذه الخاتمة قد وجهنا ضربة إلى المذهب الذى يقول بأهمية تلك العوامل اللاشخصية العامة. ومن وجهة نظر الواقع لاشك أنه يوجد مكان لكل أنواع العوامل، ولكننا لايسعنا فى **أصل التوحيد** إلاّ أن نغض الطرف بحق عن، أى عامل خارجى آخر إلا تلك العوامل التى سبق ذكرها : **وهى أن هذا التطور له علاقة بإقامة علاقات أوثق بين الأمم المختلفة ووجود إمبراطورية كبرى.**

ولذلك سنستبقى مكاناً «للإنسان العظيم» فى السلسلة، أو بالأحرى فى شبكة العلل الموحدة. وقد لايكون بلا جدوى إطلاقا مع ذلك أن نسأل عن الظرف الذى نضفى فيه على فرد من الأفراد هذا اللقب الشرفى، وقد ندهش أن نجد أن الإجابة على هذا السؤال ليست سهلة. ومن الواضح أن أول تعريف لعظمة إنسان وُهِب بشكل خاص صفات نقدرها بشكل عال هو تعريف غير مناسب من كل النواحى، فالجمال مثلا والقوة العقلية، رغم أنهما مطلوبان فإنهما لايمكن أن يزعما لنفسيهما حقاً فى «العظمة». وربما كان ينبغى أن توجد صفات عقلية تظهر تفوقاً نفسيا وفكرياً. وتكتنفنا الريّب من هذه الناحية فالإنسان الذى له معرفة بارزة فى ميدان واحد معين لايسمى إنساناً عظيما بدون أى سبب آخر. ولاينبغى لنا بالتأكيد أن نطبق اصطلاح العظمة على إنسان يجيد لعبة الشطرنج أو على لاعب يجيد العزف على آلة موسيقية. وليس بالضرورة كذلك أن تنطبق على فنان موهوب أو رجل علم.

وفى حالة كهذه ينبغى أن نرضى بأن نقول إنه كاتب أو مصور أو رياضى أو عالم طبيعة عظيم، وأنه رائد فى هذا المجال أو ذاك ولكننا ينبغى أن نتريث قبل أن نعلنه إنساناً عظيما. وعندما نعلن مثلاً أن جوته وليوناردو دافنشى(1) وبيتهوفن(2) رجال عظام فإن شيئاً

١- عن جوته فقد سبق أن نوهنا به فى أحد الهوامش. وأما ليوناردو دافينشى فهو الفنان الإيطالى المشهور من مدرسة فلورنسا الفنية، ولد فى فينشى بالقرب من فلورنسا، وعاش بين سنتى ١٤٥٢، ١٥٢٩م واشتهر بلوحاته وأشهرها الجيوكندة، وهو المنافس الوحيد لمايكل أنجلو، ويقترب فى فنه من فن المصور رافاييل، وكان بالإضافة إلى الرسم مثالاً وكاتبا ومخترعا وموسيقاراً فى كل مجالات العلم وهو ماتشهد به مذكراته. وقد كتب فرويد محللاً شخصيته فى كتاب له قمنا بترجمته. (الحفنى)

٢- بيتوفن هو المؤلف الموسيقى الأشهر (١٧٧٠ - ١٨٢٧)، ولد فى بون بألمانيا وألفّ ٣٢ سوناتا للبيانو و١٧ رباعية وتسع سيمفونيات وأوبرا فيديليو، وأصيب بالصمم وكانت حياته صعبة ولكن موهبته لم يكن لها مثيل أبداً. (الحفنى)

آخر يجب أن يحركنا لنقول عنهم ذلك، شيئاً أبعد من الإعجاب بالأعمال الرائعة التى أبدعوها. ولو لم يكن من أجل أمثلة كهذه لحق لنا أن نتصور فكرة أن لقب «الإنسان العظيم» محفوظ بحكم الأفضلية لرجال الأفعال - أى للفاتحين والجنرالات والحكام - وأن المقصود به الاعتراف بعظمة ماحققوه وبقوة الأثر الذى انبعث منهم. ومع ذلك فإن هذا أيضا غير مُرضٍ، ويتعارض تماما بإدانتنا لكثير من الناس التافهين الذى لايسعنا أن ننكر أنهم تركوا أثراً عظيما على أزمانهم وماتلاها. ولايمكن أيضا أن يُختار النجاح كسمة بارزة للعظمة إذا فكرنا فى العدد الكبير من الرجال العظام الذين كان لابد أن يكونوا ناجحين، ولكنهم ماتوا بعد أن لازمهم سوء الطالع.

ولذلك وجب أن نميل من باب التجربة إلى استنتاج أن الأمر لايستحق كثيراً أن نبحث عن تعريف واضح لمفهوم «الإنسان العظيم». ويبدو أن الاصطلاح مستهلك وغير محدد المعالم نوعاً ما، وأن العظمة صفة تُضفَى على صاحبها دون إعمال فكر، وأنها تُعطى للتطور فوق العادى لصفات إنسانية معينة. ونحن إذ ندرك ذلك نظل لصيقين بالمعنى الحرفى الأصلى لكلمة «عظمة»، وقد نتذكر أنه ليست هى طبيعة الرجل العظيم التى تثير اهتمامنا بقدر السؤال عن الصفات التى بفضلها يؤثر على معاصريه. واقترح لذلك أن أقصر هذا البحث طالما يهدد بدفعنا بعيداً عن هدفنا.

ومن ثم فلنتفق على أن الرجل العظيم يؤثر على معاصريه عن **طريقين** : من خلال شخصيته، ومن خلال الفكرة التى يوقف نفسه عليها. وهذه الفكرة قد تبرز مجموعة قديمة من الرغبات فى الجماهير، أو تشير إلى غاية جديدة لرغباتها، أو أنها مرة أخرى تقوّى الجماهير بوسائل أخرى. وأحيانا - وهذا بالتأكيد هو المفهوم الأكثر بدائية - ماتفرض الشخصية وحدها نفوذها، وتلعب الفكرة دوراً ثانويا بشكل حاسم. ولانشك إطلاقا فى السبب الذى من أجلة يَرْقَى الرجل العظيم إلى المكانة الهامة التى يتبوأها، ونعرف أن الغالبية العظمى من الناس بحاجة قوية إلى الركون إلى سلطة يعجبون بها، ويخضعوا لها وتسيطر عليهم، وأحيانا ماتسئ معاملتهم. ولقد تعلمنا من علم نفس الفرد من أين تأتى حاجة الجماهير هذه. **إنها الحنين إلى الأب الذى يعيش فى كل منا من أيام طفولته**- لنفس الأب الذى يفخر البطل بكل أسطورة بأنه قد غلبه على أمره. والآن يبدو لنا أن كل الصفات التى تزود بها الرجل العظيم هى صفات الأب، وأنه فى هذا التشابه

يكمن الجوهر الذى أفلت منا حتى الآن، والذى يمكن أن يكون للرجل العظيم. والحسم فى الفكر، والقوة فى الإرادة، والقسرية فى أعماله، كلها صفات تتحلى بها صورة الأب، ثم فوق كل الأشياء الأخرى، اعتماد الرجل العظيم على نفسه واستقلاله، واعتقاده الإلهى بأنه يفعل الشئ الصواب، وهى صفات قد تضفى على أعماله صفة القسوة. ولابد أن يُعجَب به الناس، وقد يثقون فيه، ولكنهم يخشونه. وكان يجب أن نتنبه إلى معنى الكلمة نفسها، فمَن فى حياة الطفل ينبغى أن يكون إنساناً عظيما سوى الأب؟

ولاشك أن صورة الأب المثالية التى تمثلت فى شخص موسى لتقول للعمال اليهود الفقراء أنهم كانوا أبناءه الأعزاء، لابد أنها كانت صورة هائلة، وأن صورة الإله المفرد الأبدى القدير ماكانت أقل تسلطاً عليهم. ولقد وعدهم، الذى فكر أنهم يستحقون أن يعقد معهم عهداً، بأن يُعنَى بهم، إذا فقط ظلوا مخلصين لعبادته. ومن المحتمل أنهم لم يجدوا الأمر سهلاً، أن يفصلوا صورة الإنسان موسى عن صورة الإله، وكانت غريزتهم على صواب فى هذا، طالما أن موسى من الجائز جداً أنه قد أدمج فى شخصية إلهه بعضاً من سماته هو، مثل غضبه وقسوته. وعندما قتلوا هذا الإنسان العظيم لم يفعلوا إلا أنهم كرروا فعلاً شريراً كان فى الأزمان البدائية قانوناً موجهاً ضد الملك الإلهى، وهو قانون مستمد كما نعلم من طراز من القوانين أقدم(١).

ومن ناحية أخرى فعندما تنمو صورة الإنسان العظيم وتصبح صورة إلهية، فإن الوقت يحين لنتذكر أن الأب كذلك كان طفلاً فى يوم من الأيام. وكما سبق أن ذكرت فإن الفكرة الدينية العظيمة التى وهب لها الإنسان موسى نفسه لم تكن فكرته، فلقد نقلها عن مليكه أخناتون، وربما كان الأخير - الذى تقوم عظمته بلاشك كمؤسس لديانة - قد تبع إشارات وصلته من الشرق الأدنى أو الأقصى عن طريق أمه أو غير ذلك من الطرق.

وليس باستطاعتنا أن نتعقب الخيوط أكثر من ذلك، فإذا كانت الحجة الحالية صحيحة حتى الآن فإن فكرة التوحيد لابد قد ارتدّت إلى البلد الذى خرجت منه أصلا. ويبدو من غير المجدى محاولة التيقن من الجدارة التى تُلصق بشخص مالفكرة جديدة. ومن الواضح أن كثيرين قد شاركوا فى تطويرها وأضافوا إليها. ومن الخطأ من ناحية أخرى أنْ نوقف تسلسل العلل عند موسى، وأن نهمل ماحققه خلفاؤه من أنبياء اليهود. ولم يضرب التوحيد

١- Frazer p. 192 (فرويد)

بجذوره في مصر، وكان من الممكن أن يقع نفس الفشل في إسرائيل بعد أن نبذ الشعب الديانة المتعبة والتي تدّعي لنفسها حقوقاً شرعية والتي فُرضت عليه. ومن جماهير الشعب اليهودي قام المرة تلو المرة رجال أضفوا لوناً جديداً على التراث الذابل، وجددوا تحذيرات وأوامر موسى، ولم يستريحوا حتى استُعيدت مرة أخرى القضية المفقودة. وفي المحاولة الدائبة التي استمرت عبر القرون، وأخيراً وليس آخرا، من خلال حركتين إصلاحيتين عظيمتين - واحدة قبل النفي إلى بابل، والأخرى بعده - وقع تغيير الإله الشعبي يهوا إلى الإله الذي فرض موسى عبادته على اليهود. وإنه لدليل على استعداد نفسي خاص في الجماهير ناسب الشعب اليهودي، حتى أنه أظهر عدداً كبيراً جداً من الأشخاص كانوا مستعدين أن يأخذوا على عاتقهم عبء الديانة الموسوية لقاء الاعتقاد بأن شعبهم كان شعباً مختارا، وربما لقاء مكاسب أخرى من نفس المستوى.

✠ ✠ ✠

-٤-

التقدم في الروحانية

ولتحقيق نتائج نفسيه أبدية لدى شعب من الشعوب من الواضح أنه لايكفي تأكيدهم أن الله قد اختارهم خصيصاً. وهذا التأكيد ينبغي إثباته إذا كان عليهم أن يربطوه بالإيمان وأن يستمدوا نتائجهم النهائية من ذلك الإيمان. وفي ديانة موسى كان الخروج هو بمثابة ذلك الإثبات. ولم يَمَل الله، أو موسى باسم الله، ترديد هذا الإثبات لتفضيل الله لهم. ولقد قام عيد العبور ليبقى هذا الحدث في البال، أو بالأحرى ليبقى عيداً قديماً قد أضفيت عليه هذه الذكرى، ومع ذلك كانت مجرد ذكرى، فالخروج نفسه ينتمي إلى ماضٍ معتم. وكانت دلائل تفضيل الله لهم في الوقت نفسه هزيلة للغاية، وإن مصير شعب إسرائيل ليدل بالأحرى على ازدرائه لهم. وكانت الشعوب البدائية معتادة على عزل آلهتهم أو حتى إنزال العقاب بهم إذا لم يقوموا بواجبهم في إعطائهم النصر والحظ والرفاهية. وكان الملوك كثيراً مايُعامَلون مثل الآلهة في كل عصر، وهكذا يتضح التماثل القديم بين الملك والإله - أي خروجهما من أصل مشترك. وتمارس الشعوب الحديثة كذلك عادة التخلص هكذا من ملوكهم إذا انطفأت روعة حكمهم بهزائم صاحبها فقدان أرض ومال. فلماذا ازداد مع ذلك

التصاق شعب إسرائيل بإلهه كلما ازداد سوء معاملة إلهه له؟ إن هذا سؤال ينبغي أن نتركه مفتوحا حالياً.

وقد يثيرنا أن نبحث عمّا إذا كانت ديانة موسى لم تعط الشعب شيئاً إلا زيادة فى الثقة بالنفس من خلال الإدراك بأنه شعب «مختار». والعنصر الثانى يمكن العثور عليه حقيقة بسهولة، فإن ديانة اليهود قد أعطتهم أيضاً فكرة أكثر عظمة عن إلههم، أو بتعبير أفضل، فكرة عن إله أكثر جلالة. وكل من اعتقد فى هذا الإله شارك فى عظمته، أى ربما يحس هو نفسه أنه قد تسامى. وقد لايكون هذا واضحاً تماما لغير المؤمنين، ولكن من الجائز تشبيهه بالثقة العالية التى يحسها البريطانى فوق أرض أجنبية قد حولها التمرد إلى أرض غير آمنة، وهى ثقة تعوز كليةً أحد رعايا أية دولة قارّية صغيرة، فالبريطانى يعتمد على حكومته لترسل سفينة حربية إذا لُمست شعرة من رأسه، ويعتمد أيضاً على معرفة المتمردين معرفة تامة بأن هذا هو ماسيؤول إليه الأمر، بينما الدولة الصغيرة لاتملك حتى سفناً حربية. ولذلك فإن الاعتزاز بعظمة الإمبراطورية البريطانية يمتد أحد جذوره فى الوعى بالأمان الأكبر والحماية اللذين يتمتع بهما الرعية البريطانية. وقد يصدق نفس الشئ على فكرة الإله العظيم. والاعتزاز بعظمة الإله تسير مع الاعتزاز بوقوع «اختيار» الإله عليه - طالما أن الإنسان لايمكن أن يتصور أنه يمكن أن يساعد الإله فى تصريفه لشئون العالم.

ويوجد على رأس شرائع الديانة الموسوية قانون له دلالة أكبر مما يبدو واضحاً لأول وهلة. وهو القانون الذى يمنع عمل صورة للإله، وهو مايعنى فرض عبادة إله خفى. وأنا أتصور أن موسى فى هذه النقطة فاق أتون فى الصرامة، وربما كان يعنى أن يكون رصينا، وكان على إلهه ألاّ يكون له اسم أو سحنة، وربما كان النهى تحوطاً جديداً ضد إساءة الاستخدام عن طريق السحر، وإذا كان هذا النهى مقبولا فإن من شأنه أن يفرض سيطرة عميقة، لأنه كان يعنى ثانوية الإدراك الحسى بالمقارنة بالفكرة المطلقة. وكان انتصاراً للروحانية على الحواس، وبتعبير أدق نبذاً للغريزة تصاحبه نتائجه النفسية الضرورية.

ولكى نجعل مايبدو لأول نظرة غير مقنع - نجعله مصدقاً أكثر، ينبغى أن نتذكر العمليات الأخرى ذات السمات المشابهة فى تطور الثقافة الإنسانية. ولانستطيع أن ندرك فى ظلام العصور البدائية إلا معالم معتمة لأكثر هذه العمليات تبكيراً وربما أهمها. وتجعل

نتائجها المدهشة من الضرورى أن نستنتج أنها قد حدثت. ونحن نجد فى أطفالنا وفى البالغين العصابيين، وكذلك فى الناس البدائيين، ظاهرة عقلية أُسمِّيها «سلطان الأفكار». ونحن نحكم عليها بأنها تقدير مبالغ فيه للسيطرة التى يمكن فى هذه الحالة أن تمارسها القدرات الفكرية على العالم الخارجى بتغييره. وكل السحر وهو سلف العلم، يقوم أساساً على هذه المقدمات. وكل سحر للكلمات يُصَب هنا، وكذلك الاعتقاد فى القوة المرتبطة بالمعرفة وبنطق اسم من الأسماء.

ونحن نتصور أن «سلطان الأفكار» كان التعبير عن الاعتزاز الذى اتخذته الإنسانية بتطوير اللغة، الذى جلب ضمن ماجرّه مثل هذه الزيادة غير العادية فى القدرات الفكرية. وحينئذ تفتّحت المملكة الجديدة للروحانية حيث صارت للمدركات وللذكريات وللاستدلالات أهميتها الحاسمة، بعكس النشاط النفسى الأدنى الذى قَصَر نفسه على المدركات المباشرة لأعضاء الحس. وكانت هذه المرحلة يقينا إحدى أهم المراحل على طريق الصيرورة الإنسانية.

وتواجهنا بشكل ملموس أكثر عملية أخرى لزمن لاحق، فلقد حدث تحت تأثير ظروف خارجية - لاحاجة بنا أن نتتبعها هنا، وهى كذلك فى جزء منها غير معروفة بدرجة كافية - أنْ حَلَّ محل البناء الأموى للمجتمع (الخاص بالأم) - حل محله البناء الأبوى. وجلب ذلك معه بطبيعة الحال ثورة فى الوضع القائم للقانون، ومايزال صدى هذه الثورة مسموعا على ماأرى فى أورستية إسخيلوس(١). وهذا التحوُل من الأم إلى الأب يعنى فوق مايعنى انتصاراً للروحانية على الحواس، أى يعنى خطوة للأمام فى الثقافة، طالما أن الأمومة تثبت الحواس وجودها، بينما الأبوة افتراض يقوم على الاستدلال ومقدمة منطقية. وثبت أن هذا الإعلان إلى جانب عملية التفكير ومن ثم رفعها فوق الإدراك الحسى، كان خطوة مشحونة بالنتائج الخطيرة.

١- ثلاثية كتبها المسرحى الإغريقى إسخيلوس ومُثّلت فى أثينا سنة ٤٥٨ ق.م. وتشتمل على ثلاث مسرحيات هى بالترتيب أجاممنون، وحاملات القرابين، والإيومبيدات. وإسخيلوس شاعر بل من أكبر شعراء الدنيا القديمة، وكان قد اشترك فى الحروب ضد الفرس، ثم انصرف إلى الكتابة المسرحية فابتكر فى المأساة حتى أصبح بحق أبا الفن التمثيلى، بقوة خياله وعمق عاطفته الدينية والإنسانية، وبأصالة إخراجه. (الحفنى)

وفى وقت مابين الحالتين اللتين ذكرتهما، وقعت حادثة أخرى تفصح عن علاقة أوثق بالحالات التى بحثنا أمرها فى تاريخ الدين. ووجد الإنسان أنه مواجه بقبول قُوَى «روحية» - أى قوى من النوع الذى لايمكن إدراكه بواسطة الحواس، وخاصة بواسطة حاسة البصر، مع ذلك كان لها آثار لاتنكر بل وقوية للغاية. وإذا جاز لنا أن نركن إلى اللغة، فإن حركة الهواء هى التى أوحت بالصورة التى يمكن أن تكون عليها الروح، حيث أن كلمة الروح تستمد اسمها من نَفْسَة الريح(١). وهكذا ولدت فكرة الروح بوصفها المبدأ الروحى فى الفرد، ونعثر بالملاحظة على نفسة الهواء مرة أخرى فى التنفس الإنسانى الذى يتوقف مع الموت، وحتى اليوم نتحدث عن الميت الذى يلفظ آخر أنفاسه. والآن انفتحت مملكة الأرواح للإنسان، وكان مستعداً لأن يضفى على كل شئ فى الطبيعة من الروح التى اكتشفها فى نفسه وصار كل العالم مسكونا بالأرواح، وجاء العلم متأخراً جداً، وكان أمامه مايكفيه من العمل لهدم ماكانت عليه الأمور من قبل، ولم ينته من عمله بعد.

ومن خلال النواهى الموسوية، ارتفع الإله إلى مستوى من الروحية أرقى، وانفتح الباب على مزيد من التغييرات فى فكرة الإله، وهى الفكرة التى سنتحدث عنها فيما بعد. وستشغلنا حالياً آثارها الأخرى. وكل تقدم فى الروحية يُنتج زيادة فى الثقة بالنفس، وفى جعل الناس فخورين حتى أنهم ليحسون الاستعلاء على هؤلاء الذين ظلّوا فى أسر الحواس. ونعرف أن موسى قد أعطى اليهود الإحساس المستعلى لكونهم شعب الله المختار. وبتجريد الله من الماديات أضفى شيئا جديداً قيّما إلى كنز الشعب السرى. واستبقى اليهود ميلهم نحو الاهتمامات الروحية. وعلّمتهم المصيبة السياسية التى حلّت بالأمة أن يستسيغوا الشئ الوحيد الذى استبقوه مما كانوا يملكون، وهو سجلاتهم المكتوبة، وأن يقدروها حق قدرها. وبعد هدم تيتوس(٢) للمعبد فى القدس مباشرة، طلب الحاخام يوحنان بن ساكّاى الإذن بفتح أول مدرسة لدراسة التوراة فى يابنيه Jabneh. ومنذ ذلك الحين كانت التوراة ودراستها هما اللتان حافظتا على تماسك الشعب رغم التشتت الذى كان عليه.

١- نَفْسة أو نسمة الريح بمعنى animus أو spiritus وفى العبرية ruach بمعنى دخان. (فرويد)

٢- إمبراطور روما من ٧٩ إلى ٨١، وهو ابن الإمبراطور فيسبازيان، وأثناء حكم أبيه استولى على أورشليم سنة ٧٠ وضمها للإمبراطورية. (الحفنى)

والكثير جداً معروف ومقبول بشكل عام، ولم آمل إلا أن أضيف أن كل هذا التطور الذى يدل على اليهود بشكل خاص، أدخله **نهى موسى عن عبادة الإله فى شكله المرئى.**

وكان للأفضلية التى أوْلاها اليهود خلال ألفى عام للترقى الروحى آثارها بالطبع، وساعدت على بناء سد ضد التوحش والميل إلى العنف اللذين يوجدان عادة حيث يصبح المثل الأعلى للشعب تربية أفراده رياضياً.

ولقد حُرِّم على اليهود التطور المنسق للنشاط الروحى والجسمى كما تحقق لدى الإغريق. وكانوا قد اتخذوا قرارهم على الأقل ضد هذا الصراع تأييداً لما كان أكثر أهمية ثقافيا.

✠ ✠ ✠

-٥-

النبذ عكس الإشباع

لايبدو من الواضح أبدا السبب الذى من أجله تزيد الروحية وثانوية الحواس من ثقة الفرد وكذلك الأمة. ويبدو أن هذا يفترض مسبقا مستوى محدداً للقيم، وشخصاً آخر أو شريعة تستخدمه. ونعود لشرح ذلك إلى حالة مشابهة فى علم نفس الفرد تعلمنا أن نفهمها.

فعندما يلح «الهو» على إنسان لتحقيق مطلب غريزى له طبيعة جنسية أو عدوانية، فإن أبسط استجابة وأكثرها طبيعية للأنا الذى يحكم جهازَى التفكير والأعصاب، هو إشباع هذا المطلب بإتيان فعل من الأفعال، وهذا الفعل الغريزى يحس به الأنا كمتعة، مثلما أن عدم إشباع هذه الغريزة يصبح بلاشك مصدرا للإزعاج. والآن قد يحدث أن الأنا تحيد عن إشباع الغريزة بسبب عوائق خارجية - أى عندما يتبين «الأنا» أن إتيان هذا الفعل يجلب فى ركابه خطراً مؤكداً على «الأنا». ومثل هذا الانصراف عن الإشباع، وهو نبذ الغرائز بسبب العوائق الخارجية كما نقول، إطاعة لمبدأ الواقع، لايمكن أن يكون مصدراً لمتعة. ويسبب النبذ الغريزى توتراً مؤلماً مستمراً إذا لم ينجح فى تقليل قوة الدافع الغريزى من خلال عملية تحولٍ للطاقة. وقد يفرض علينا كذلك هذا النبذ الغريزى بواسطة دوافع أخرى نسميها عن حق دوافع داخلية. وخلال عملية تطور الفرد يتحول جزء من القوى الكابحة فى

العالم الخارجى إلى داخل الفرد وتصبح قوى كابحة داخل الفرد، ويتكون معيار فى الأنا يعارض القدرات الأخرى بواسطة الملاحظة والنقد والنهى. ونحن نسمى هذا المعيار الجديد «الأنا الأعلى». ومن الآن فصاعداً فإن الأنا قبل أن يتولى إشباع الغرائز، عليه أن يُعنى ليس فقط بالعالم الخارجى، بل وباعتراضات الأنا الأعلى. وله فرصة لذلك أكبر للامتناع عن إشباع الغريزة. وبينما نجد النبذ الغريزى لأسباب خارجية مؤلم فقط، فإن النبذ لأسباب داخلية، وإطاعةً لمطالب الأنا الأعلى، له أثر اقتصادى آخر، فهو بالإضافة إلى الألم الذى لاسبيل إلى تجنبه يحدث تسامياً فى اللذة التى يعطيها للأنا - وهو مايسمى بالإشباع التعويضى. إن الأنا يحس أنه تسامى، وهو يفخر بعملية النبذ كأنها انتصار له قيمته. ونظن أن بوسعنا أن نتتبع آلية هذا التسامى فى المتعة، فالأنا الأعلى هو خليفة وممثل الآباء (والمعلمين) الذين يشرفون على تصرفات الفرد فى سنوات حياته الأولى، وهو يستمر فى القيام بوظائفهم بلا تغيير تقريباً. ويُبقى الأنا فى حالة تبعية دائمة ويمارس ضغطا منتظما. ويُعْنىَ الأنا كما كان فى الطفولة بالاحتفاظ بحب سيده، وهو يحس برضاه كما لو كان غوثاً وإشباعا، وبتأنيبه كوخز فى الضمير. وعندما يكون الأنا قد ضحّى من أجل الأنا الأعلى بنبذ إشباع غريزى، فإنه يتوقع أن يُكَافأ على عمله بأن يُحب أكثر. والوعى باستحقاق هذا الحب يُحس كفخر.

وفى وقت أن كانت السلطة لم تُدمج بعد وتصبح أنا أعلى، كانت العلاقة بين الحب المهدد بالفقد وبين المطلب الغريزى هى نفسها. وينتج إحساس بالأمن والإشباع إذا حقق الفرد لنفسه نبذاً غريزياً من باب الحب لأبويه. وهذا الإحساس الطيب لايستطيع أن يحرز صفة الافتخار النرجسية الخاصة إلا بعد أن تصير السلطة ذاتها جزءاً من الأنا.

كيف يساعدنا هذا التفسير لتحصيل الإشباع عن طريق النبذ الغريزى فى تفهم العملية التى نرغب فى دراستها - وهى زيادة الثقة بالنفس التى ترافق التقدم فى الروحية؟ من الواضح أنه يقدم القليل جداً من المساعدة، لأن الظروف هنا مختلفة جداً. ولايوجد نبذ غريزى ولايوجد شخص ثانى أو مقياس أعلى من أجله تُؤدَى التضحية. والجملة الثانية ستبدو تقريباً مشكوكاً فيها. وقد يجوز أن نقول أن الإنسان العظيم هو السلطة التى من أجلها يُبذل الجهد، وحيث أن الإنسان العظيم يحقق ذلك لأنه بديل عن الأب، فلاحاجة بنا إلى الاندهاش إذا نيط به دور الأنا الأعلى الذى يمكن أن يكون للجماهير والذى تقول به

سيكولوجيتها. ويصدق هذا لذلك، بالنسبة للإنسان موسى فى علاقته بالشعب اليهودى. وفى نقاط أخرى، مع ذلك، لايوجد تشابه صحيح فيما يبدو. ويتكون الترقى فى الروحية من الحكم ضد الإدراك الحسى لصالح مايسمى بالعمليات الفكرية الأعلى - أى لصالح الذكريات والتأمل والاستقراء. وقد يكون المَثَل لذلك هو الحكم الذى يقضى بأن الأبوة أهمّ من الأمومة، مع أن الأبوة لايمكن إثباتها بالحواس كالأمومة. وهذا هو السبب الذى من أجله ينبغى أن يكون للطفل اسم أبيه وأن يرثه. ومَثَل آخر : إن إلهنا هو أعظم الآلهة وأقواها، ولو أنه غير مرئ كما أن الريح والروح غير مرئيين. ويبدو رفض المطلب الجنسى أو الغريزى العدوانى شيئاً مختلفاً جداً عن هذا. وفى أمثلة كثيرة على التقدم فى مدارج الروحية - لانستطيع أن نشير إلى السلطة التى تسن المعيار الذى به يقاس مايمكن أن يعد ذا قيمة أعلى. وفى هذه الحالة لايمكن أن يكون الأب نفسه، طالما أن هذا التقدم وحده هو الذى يرفعه إلى أن يكون فى مرتبة السلطة. ولذلك فإننا نتواجه مع هذه الظاهرة وهى أنه خلال تطور البشرية يخضع عالم الحسيات للروحية، ويحس الإنسان الفخر والتسامى لكل خطوة من هذه الخطوات التى تسير به فى طريق التقدم فى الروحية. ولانعرف السبب فى ذلك. إلا أنه فيما بعد يحدث أن الروحية نفسها تغلبها على أمرها ظاهرة الإيمان العاطفية والغامضة كل الغموض. وهذا هو المثل المشهور الذى يقول إنى لأومن بما هو لامعقول cre-do quia absurdum . وأى إنسان كان يحقق لنفسه هذا يعتبره أسمى المنجزات. وربما كان الشئ المشترك بين كل تلك المواقف شيئاً مختلفاً. وربما يعلن الإنسان ببساطة أن المنجز الأعلى هو الأكثر صعوبة على التحقق، وأن فخره به ليس إلا نرجسية، يذكّيها وعيه بأنه تغلب على الصعوبة.

ومن المؤكد أن هذه الاعتبارات غير مجدية كثيراً، وقد نظن ألاّ علاقة بينها وبين بحثنا فيما حدد أخلاق الشعب اليهودى، ولكان ذلك فى صالحنا، ولكن مايثبت أن هذا التسلسل الفكرى مرتبط بمشكلتنا واقعة ستشغل بالنا فيما بعد بشكل أوسع، فالديانة التى بدأت بتحريم صنع صورة لإلهها تطورت أكثر فأكثر على مر القرون وصارت ديانة نبذ غريزى - ولايعنى ذلك أنها تأمر بالزهد الجنسى، ولكنها تقنع بتقييد الحرية الجنسية تقييداً كبيرا، وتسحب تماماً صورة الإله فيها من المستوى الجنسى وترفعه إلى مستوى مثالى من الكمال الأخلاقى. والأخلاق تعنى مع ذلك تقييد الإشباع الغريزى. ولم يمل

الأنبياء ترديد أن الإله لايطلب شيئاً آخر من شعبه سوى حياة عادلة وفاضلة - أى الامتناع عن إشباع كل السورات التى ندينها بالإثم طبقاً للمعايير الأدبية المعاصرة. وحتى الحض على الإيمان بالله يبدو وقد تراجع أمام خطورة هذه المطالب الأخلاقية. ومن ثم يظهر أن النبذ الغريزى يلعب دوراً بارزاً فى الدين، مع أنه لم يكن موجوداً فيه من أول الأمر.

وهنا يمكن أن نقول شيئاً من شأنه أن يمنع قيام سوء تفاهم. ومع أنه قد يبدو أن عملية نبذ الغرائز، والأخلاقيات التى تنهض عليها، لاتمت إلى جوهر الدين، إلا أنها عموماً وثيقة الارتباط بالدين رغم ذلك. وتحتوى الطوطمية وهى أول شكل نعرفه للدين، كجزء لايتجزأ من نظامها، على عدد من القوانين والنواهى التى ببساطة لاتعنى شيئاً سوى أنها نبذ للغرائز، فهناك عبادة الطوطم التى تحتوى على تحريم قتله وحظر تعريضه للأذى؛ وهناك الزواج من غير الأهل (وهو يعنى تقييد الميل إلى تسوية كل منازعاتهم بالقوة المجردة). وفى هذه القواعد نتلمس البدايات الأولى للنظام الأخلاقى والاجتماعى. ولايخفى علينا أن نلاحظ أن دافعين مختلفين يظهران على المسرح هنا. فالحظران الأولان يعملان فى الاتجاه الذى كان من الممكن أن يرغب فيه الأب المقتول، وهما كما نرى يعملان على استمرار وصيته. والقانون الثالث، وهو القانون الذى يعطى حقوقاً متساوية إلى الإخوة، يتجاهل رغبات الأب، وينهض معناه على الحاجة إلى الحفاظ بشكل دائم على النظام الجديد الذى قام بعد موت الأب، وإلا فالانتكاس إلى الحالة السابقة لايمكن تجنبه. وهنا صارت القوانين الاجتماعية منفصلة عن غيرها من القوانين التى من الجائز أن نقول عنها أنها نشأت مباشرة من مغزى دينى.

وفى التطور المقتضب للفرد الإنسان تتكرر أهم أحداث تلك العملية. وهنا أيضاً فإن سلطة الآباء - وأساساً سلطة الأب صاحب القوة الذى لامنازع له، والذى يستخدم سلطة العقاب - هى التى تطلب نبذ الغرائز من جانب الطفل وتحدد ماهو مسموح به وماهو ممنوع. ومايسميه الطفل «حلوا» أو «خبيثاً» يصبح فيما بعد، وعندما يحل المجتمع والأنا الأعلى مكان الآباء، «خيّراً» بالمعنى الأخلاقى أو «شريراً»، أى يصبح فاضلا أو رذيلاً. ولكنه مع ذلك هو نفس الشئ : نبذٌ للغرائز من خلال حضور السلطة التى حلّت محل الأب وواصلت سلطته.

وتعمق نظرتنا داخل هذه المشاكل أكثر عندما نبحث المفهوم الغريب للقداسة. ماهو فى الواقع ذلك الذى يظهر «مقدساً» بالمقارنة بالأشياء الأخرى التى نحترمها جداً ونوافق على أنها شئ هام له أثره؟ فمن ناحية فإن الارتباط بين المقدس والدين شئ صحيح وبارز جداً حتى ليبدو واضحاً، فكل شئ مرتبط بالدين مقدس، وهذا هو صميم جوهر القداسة. ومن ناحية فإن الاضطراب يحوم حول حكمنا من جرّاء المحاولات العديدة التى تريد أن تنسب القداسة إلى أشياء أخرى كثيرة - أشخاص ونظم وتشريعات لاتمت إلا بالقليل إلى الدين. وهذه المحاولات كثيراً ماتكون مفرضة بشكل واضح. ولنبدأ من سمة التحريم التى تلتصق التصاقاً وثيقاً بالدين. ومن الواضح أن المقدس شئ لايجب أن يُلمس. وللتحريم المقدس نغمة مؤثرة شديدة القوة، ولكنه فى الواقع لاينبع من دافع عقلى، إذ ماالذى يجعل ارتكاب الفحشاء بوجه خاص مع الابنة أو الأخت جريمة نكراء أكثر جرماً من أى علاقات جنسية أخرى؟ وعندما نسأل عن تفسير سيقال لنا بالتأكيد أن أحاسيسنا تنفر من جريمة كهذه، ومع ذلك فإن كل هذه المعانى لاتفيد إلا أن التحريم شئ يعد واضحاً بنفسه، وأننا لانعرف كيف نفسره.

ومن السهل إثبات أن تفسيراً كهذا زائف، فالشئ المعروف عنه أنه يؤذى أحاسيسنا هو فى العادة كان مألوفاً بشكل عام - وقد نقول إنه كان تقليداً مقدساً - عند الأسر الحاكمة لقدماء المصريين والشعوب الأخرى. ولاجدال أن كل فرعون وجد أول زوجة له فى أخته، ولم يتردد خلفاء الفراعنة وهم البطالسة الإغريق فى اتّباع هذا المَثَل. ويبدو أننا نستنتج من ذلك أن الزنا بالمحارم - وهو فى هذه الحالة بين الأخ وأخته - كان امتيازاً ممنوعاً على العاديين من الناس، ومقصوراً على الملوك الذين يمثلون الآلهة على الأرض. ولم يكن عالم أساطير الإغريق والألمان استثناء من حيث تحريم هذه العلاقات بين المحارم من الأقارب، وربما جاز لنا أن نتصور أن الاهتمام البالغ بما يسمى «أسرة» بين الطبقة النبيلة العليا من مجتمعاتنا من مخلفات هذا الامتياز القديم، ونلاحظ أنه كنتيجة للتزواج الداخلى الذى استمر خلال أجيال كثيرة فى الدوائر الاجتماعية العليا أن الرءوس المتّوجة اليوم فى أوروبا هى فى الواقع أسرة واحدة.

ويساعد وصف التزاوج بين المحارم عند الآلهة والملوك والأبطال بأنه زنا، على إسقاط محاولة أخرى لتفسير عدم ضرر التزاوج الداخلى والتقليل من نتائجه البيولوجية المخيفة.

ولاننكر وجود خطر من نوع ما من التزاوج الداخلى، ناهيك عن أن الأجناس البدائية عرفته واتّقته. وعدم التيقن فى تحديد العلاقات المسموح بها والمحرمة هو حجة أخرى ضد افتراض وجود «إحساس طبيعى» مسبق لدى الإنسان كدافع أصلى للفزع من الاتصال الجنسى بالمحارم.

وتفرض علينا نظريتنا لصياغة ماقبل التاريخ تفسيراً آخر، وهو أن قانون الزواج من غير الأقارب، وهو التعبير السلبى الذى ينبع منه الخوف من الاتصال الجنسى بالأقارب، كان إرادة الأب، وأنه استمر بعد مقتله. ومن ثم كانت قوة أثره واستحالة وجود دافع عقلى له - وبالاختصار قداسته. وإنى لأتوقع عن ثقة أن يؤدى البحث فى كل الحالات الأخرى للمحرمات المقدسة إلى نفس نتيجة الفزع من الاتصال الجنسى بالأقارب - وهو أن ماهو مقدس ليس فى الأصل شيئا سوى الإرادة الخالدة للأب البدائى. ويوضح ذلك أيضا تفسير المعنيين المتعارضين للكلمة، واللذين ظلا بلا تفسير حتى الآن، واللذين يعبران عن مفهوم القداسة. وهما المعنيان اللذان يحكمان العلاقة بالأب، فكلمة مقدس "sacer" لاتعنى فقط «مقدسا» أو «مباركا»، ولكنها تعنى كذلك شيئا يمكننا أن نترجمة «بملعون» أو «يستحق الازدراء» (auri sacra fames). ولم تكن إرادة الأب مجرد شئ لاينبغى أن يلمس، وينبغى أن يوضع موضع الشرف العالى، ولكنها كذلك شئ يجعل الإنسان يرتجف لأنها تتطلب بالضرورة النبذ المؤلم للغرائز. وعندما نسمع أن موسى جعل شعبه مقدسا بأن أدخل عادة الختان، فإننا نفهم الآن المعنى العميق لهذا الزعم، فالختان هو البديل الرمزى للإخصاء، وهو عقاب كان يفرضه الأب البدائى على أبنائه منذ زمن بعيد من باب الممارسة الكاملة لسلطته، وكل من كان يقبل هذا الرمز كان يظهر بعمله ذاك استعداده للرضوخ لإرادة الأب، رغم أنه كان على حساب تضحية مؤلمة.

وبالعودة إلى الأخلاق : قد نقول ختاماً أن جزءاً من قواعدها تفسره عقليا ضرورة تحديد الحقوق التى يرتبها المجتمع لنفسه على الفرد، والحقوق التى يرتبها للفرد على المجتمع، والحقوق التى تترتب للأفراد تجاه بعضهم البعض. وإن مايظهر غامضا ومهيبا وكما لو كان من البديهيات ليدين بهذه الصفات إلى ارتباطه بالدين، وبانبعاث أصله من إرادة الأب.

✠ ✠ ✠

-٦-

الحقيقة فى الدين

✠ ✠ ✠

كيف نحسد نحن أصحاب الإيمان القليل هؤلاء الذين يقتنعون بوجود قوة عليا لايشكل العالم بالنسبة لها أية مشاكل لأن هذه القوة نفسها هى التى خلقت كل نواميسه! وكيف أن مذاهب المؤمنين شاملة ومستوعبة ونهائية بالنسبة لمحاولات التفسير المصطنعة الفقيرة المرقعة وهى أحسن مايمكننا تقديمه! إن الروح الإلهية، وهى فى ذاتها المثل الأعلى للكمال الأخلاقى، قد زرعت داخل روح البشر المعرفة بهذا المثل الأعلى والدوافع إلى السعى نحوه فى نفس الوقت. والبشر يحسون فوراً بما هو سام ونبيل وبما هو مُحَطٌ وحقير. وتقاس حياتهم العاطفية بالبعد بينهم وبين مثلهم الأعلى. وإنه ليمنحهم إشباعاً عظيما عندما يقتربون منه أكثر - قياساً إلى أقرب نقطة منهم إليه - ويحسون كعقاب لهم بالشقاء الشديد عندما - قياساً إلى أبعد نقطة منهم إليه - يسيرون مبتعدين عنه. كل هذا معروف ببساطة وباستقرار جداً. وليس بوسعنا إلا الأسف له إذا جعلت تجارب معينة من الحياة وملحوظات مستوحاة من الطبيعة من المستحيل تقبل الافتراض بوجود مثل هذا الكائن الأعلى. وكما لو كان العالم ليس لديه مايكفى من المشاكل، فإننا نتواجه بمهمة الكشف عن الكيفية التى استطاع بها المؤمنون بالكائن الإلهى أن يكون لهم هذا الإيمان، ومن أين يستمد هذا الإيمان القوة الضخمة التى تمكنه من التغلب على العقل والعلم[1].

ولنعد إلى المشكلة الأكثر تواضعاً التى شغلتنا حتى الآن، فلقد بدأنا فى شرح من أين جاءت هذه الخاصية العجيبة للشعب اليهودى التى بكل الاحتمالات ساعدت هذا الشعب على الاستمرار فى الحياة حتى الوقت الحالى. ووجدنا أن الإنسان موسى قد صاغ أخلاق هذا الشعب بإعطائه ديانة زادت من ثقته بنفسه لدرجة أنه اعتقد فى نفسه أنه أسمى من كل الشعوب الأخرى، وعاش بأن انعزل عن الشعوب الأخرى. ولم يؤثر عدم اختلاط الدم إلا تأثيراً بسيطاً، طالما أن ما أبقى هذا الشعب دون اختلاط بغيره من الشعوب كان شيئاً مثالياً هو امتلاكه امتلاكاً مشتركا لقيم فكرية وعاطفية معينة. ولقد كان للديانة الموسوية مثل هذا الأثر لأنها :

١- إشارة إلى الفقرة فى رواية فاوست إلتى تقول "Verachte nur Vernunft und Wissenschaft". (المترجمة)

١- سمحت للشعب بالمشاركة فى جلال مفهومها الجديد عن الله.

٢- وتمسكت بأن الشعب قد «اختاره» هذا الإله العظيم، وأنه كان من قَدَره أن يستمتع بدلائل إيثاره الخاص.

٣- وفرضت على الشعب تقدماً فى الروحية - له دلالته الكافية فى حد ذاته - فقد فتح طريق الاحترام، لأبعد من ذلك، للعمل الفكرى ولمزيد من أوجه النبذ للغرائز.

وهذه هى إذن الخاتمة التى توصلنا إليها، ولكنى رغم أنى لاأرجو أن أسحب أى شئ قلته من قبل، فإنى لايسعنى إلا الشعور بأنها بشكل مانتيجة غير مرضية تماما، فالسبب على ماأرى لايتفق مع النتيجة وتبدو الحقيقة التى نحاول شرحها شيئا غير متناسب مع كل مانقدمه من دلائل بهدف التفسير. فهل من الممكن أن كل بحوثنا حتى الآن لم تكشف الدافع كله؟ بل طبقة سطحية منه فقط، وأنه خلف هذه الطبقة يكمن مختفياً جزء مركب آخر له دلالته الكبرى؟ وبالنظر إلى التعقيد غير العادى الذى توجد عليه كل الأسباب المترتبة عليها مجريات الأمور فى الحياة، وكذا التاريخ، فإنه كان الأحرى بنا أن نكون مستعدين لاستقبال هذا الدافع الأعمق والأكثر تعقيدا.

وبلوغ هذا الدافع الأعمق يبدأ تحقيقه عند فقرة معينة فى المناقشة السابقة، فديانة موسى لم تحقق آثارها فوراً، ولكن بطريقة غير مباشرة وغير مألوفة. ولايعنى هذا أنها هى نفسها لم تستحدث هذا الأثر، ولكنها استغرقت وقتا طويلا وقرونا كثيرة لتفعل ذلك، وهو مايلزم بلا منازع لتطور أخلاق شعب من الشعوب. ومع ذلك فإن تعديلنا يشير إلى واقعة أخذناها من تاريخ الديانة اليهودية، أو بالأحرى أدخلت عليه، فلقد قلت إن الشعب اليهودى تخلى عن ديانة موسى بعد وقت معين، ولانستطيع أن نقول ماإذا كان قد فعل ذلك كلية أو أنه استبقى بعضا من أفكارها. وفى تقبل الافتراض الذى يقول بأنه خلال الفترة الطويلة من القتال من أجل أرض كنعان والنضالات مع الشعوب المستقرة هناك لم تختلف ديانة يهوه كثيراً عن عبادة البعليم الآخر، فإننا نقف على أرض تاريخية، برغم كل المحاولات المغرضة اللاحقة لإخفاء هذا الوضع الزائف للأمور، فديانة موسى رغم ذلك لم تفن، وعاش نوع من ذكراها مخفيا ومشوها، ولكنه عاش ربما بتأييد أفراد من طبقة الكهنة من خلال النصوص القديمة. وكانت هذه الرواية للماضى العظيم هى التى استمرت فى ممارسة تأثيرها من وراء الستار، وببطء اكتسبت المزيد من القوة على عقول الشعب وأفلحت آخر

الأمر فى تغيير الإله يهوه إلى إله موسى، وفى بعث الديانة المهملة من جديد التى أسسها موسى من قرون مضت.

وفى الأجزاء المبكرة من هذا الكتاب ناقشت الافتراض الذى يبدو ألاّ مناص منه إذا كان علينا أن نجد مثل هذا العمل الفذ مفهوما من جانب الرواية المنقولة.

✠ ✠ ✠

-٧-

عودة المكبوت

هناك عدد من العمليات المشابهة على رأس تلك العمليات التى ميزنا بها البحث التحليلى للحياة النفسية، وبعضها يسمى باثولوجى (مرضى)، ويعد بعضها الآخر من بين الأوجه التى يتشكل عليها الشخص العادى، ومع ذلك فالأمر قليل الأهمية، لأن الحدود بين الاثنتين غير محددة تحديداً قاطعا، والطرق الآلية التى تسير عليها متشابهة إلى حد معين. وإنما الذى يهم جداً هو ماإذا كانت التغيرات موضوع البحث تتم فى الأنا نفسه أو أنها تواجهه كعوامل غريبة عليه، وفى هذه الحالة الأخيرة تسمى أعراضا. ومن اكتمال المادة التى تحت تصرفى سأختار حالات تهم تشكيل الشخصية.

لقد تطورت فتاة شابة إلى أقصى التناقض من أمها، وتعهدت فى نفسها كل الخصال التى افتقدتها فى أمها، وتجنب كل تلك الصفات التى تذكّرها بأمها. وقد أضيف أنه فى السنين السابقة كانت تجد نفسها فى أمها - كأى طفلة أخرى - ولكنها الآن بلغ بها الأمر أن تناقض هذا التماثل بحماس. وعندما تزوجت هذه الفتاة وصارت زوجة وأماً بدورها، فإننا ندهش عندما نجد أنها صارت أكثر وأكثر مشابهة للأم التى كانت تحس بالعداوة البالغة لها، حتى كللت أخيرا هذه المشابهة بالأم بالنصر القاطع. ونفس الشئ يحدث مع الأولاد. وحتى جوته العظيم، فى مرحلة من مراحل حياته لم يكن يحترم بالتأكيد، الاحترام الواجب، أباه المتعالم الفظ، ثم تكونت له فى شيخوخته صفات كانت لأبيه. وتبرز هذه النتيجة أكثر حيث يكون التناقض بين الشخصيتين أوضح وأبرز. وإن الشاب الذى كتب عليه قدره أن يكبر مع أب لايصلح لشئ، ليتجه فى نموه فى أول الأمر - ورغماً عن أبيه - إلى أن يكون رجلاً قادراً موثوقا به شريفا. ولكن فى مقتبل العمر تتغير شخصيته، ومنذ ذلك الحين فصاعداً يتصرف كما لو كان قد اتخذ هذا الأب نفسه نموذجا له، ولكى

لاننفصل عن موضوعنا يجب أن نضع فى بالنا أنه عند بداية مثل هذه العملية فإنه يوجد دائما تماثل بين الإبن والأب منذ الأيام المبكرة للطفولة، وإن التماثل يُنبذ بل ويُغالى فى الصفات المعارضة له، وفى النهاية يأتى إلى الضوء مرة أخرى.

وصار من الشائع منذ زمن بعيد أن تجربة السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل لها سلطانها الحاسم على حياتنا، وهو سلطان تعارضه الأحداث اللاحقة عبثا. ويمكن أن يقال الكثير عن كيفية مقاومة هذه التجارب المبكرة لكل جهود السنين الأنضج لتعديلها، ولكن ماسيقال لن يكون له علاقة بالموضوع، وقد لايكون معروفا بشكل قوى أن أقوى تأثير ملح يُستمد من تلك التجارب التى يدخلها الطفل، يكون فى وقت نحسب أن لدينا من الأسباب مايجعلنا نعتقد أن جهازه النفسى يكون غير مستعد تماما لتقبلها. ولايمكن الشك فى الواقعة نفسها، ولكن يبدو مستغربا أن من الجائز أن نحاول أن نسهل أكثر عملية الفهم بواسطة التشبيه، ويمكن أن نقارن العملية بالصورة الفوتوغرافية التى يمكن تكبيرها لتصبح صورة أكبر بعد فترة تقصر أو تطول. وهنا قد أشير مع ذلك إلى أن كاتباً خياليا، له الجرأة التى لأمثاله من الكتّاب، قيض له هذا الاكتشاف المحير قبلى، واعتاد ى.ت.ا. هوفمان[1] أن يشرح ثراء الأرقام الخيالية التى كانت تكشف له عن مكنونها لينسج منها قصصه عن طريق الصور التى تتغير بسرعة والأحاسيس التى كان قد تلقاها خلال رحلة فى عربة بريد استمرت لعدة أسابيع عندما كان مايزال طفلا يرضع من ثدى أمه. وماكان قد جرّبه طفل، ولم يكن قد فهمه عندما وصل إلى سنه الثانية، كان من الممكن ألا يذكره مرة أخرى أبدا إلا فى أحلامه. ولن يعى تلك الأحداث إلا أثناء العلاج التحليلى النفسى فقط. وقد تقتحم حياته فى أى وقت من سنيه باندفاع ملح، وتوجه أعماله وتجبره على حب أو كراهية الناس، ولها القرار فى كثير من الأحوال فى عملية اختيار موضوع حبه، مفضله هذا أو ذاك، بما لايمكن الدفاع عنه عقليا فى كثير من الأحيان. والنقطتان اللتان تمسان مشكلتنا لايرقى إليهما الخطأ، وهما أولاً البعد الزمنى[2] الذى يعتبر هنا كما لو كان

١- E.T.A Hoffman : كاتب قصصى. (الحفنى)

٢- وهنا كذلك قد يتحدث نيابة عنا شاعر، ولكى يشرح ارتباطه فإنه يتخيل :

لأنه فى حيوات سابقة قد مررنا كلانا

من خلالك، أيها الحب، سواء كنت

الرابطة التى ربطتنى بأختى أم بزوجتى.

جوته، المجلد الرابع من طبعة فيمار، ص ٩٧. (فرويد)

العنصر الحاسم واقعياً مثلما يحدث فى حالة الذاكرة الخاصة التى تتعلق بتجارب الطفولة تلك، والتى ندرجها تحت اسم «اللاشعور». ونتوقع أن نجد فى هذه السمة شبهاً بالحالة العقلية التى ننسبها إلى التراث عندما ينشط فى الحياة العقلية العاطفية لشعب من الشعوب. ولم يكن من السهل، حقيقة، إدخال مفهوم اللاشعور فى علم النفس الجماعى.

وتقدم الميكانيزمات التى تؤدى إلى تكوين العصاب إضافات منتظمة للظواهر التى نبحث عنها، وهنا كذلك يكون للتجارب الحاسمة التى جرت فى الطفولة المبكرة تأثيرها الباقى، ومع ذلك ففى هذه الحالة لاينصب التركيز على الزمن، بل على العملية التى تناقض ذلك الحادث، ورد الفعل ضده. وبتعبير أصح نقول الآتى : كنتيجة لتجربة معينة يقوم مطلب غريزى يسعى إلى الإشباع، ولكن الأنا يطرح عنه هذا الإشباع، إما لأن الشلل يصيبه نتيجة المغالاة فى الطلب، وإما لأنه يرى تحقيقه خطراً متمثلا. والسبب الأول من هذين السببين هو السبب الأصلى، والسببان معا ينتهيان إلى تجنب أحد المواقف الخطيرة. ويحذر الأنا من هذا الخطر بواسطة الكبت، ويمنع التهيج بطريقة أو بأخرى، وينسى الاستفزاز بماله من مشاهدات ومدركات. ولايؤدى هذا مع ذلك، بالعملية إلى النهاية، فإما أن الغريزة قد احتفظت بقوتها، أو أنها ستستعيد قوتها، أو أنها ستثار من جديد بموقف جديد. وهى تجدد مطلبها، وحيث أن الطريق إلى الإشباع الطبيعى يعوقه مايمكن أن نسميه نسيج ندبة الكبت، فإنها تحقق لنفسها عند إحدى النقاط الضعيفة منفذاً إلى مكان جديد يقرِّبها مما يسمى بالإشباع البديل الذى يظهر الآن كعَرَض، بدون موافقة الأنا وبدون إدراكه كذلك. وكل الظواهر التى تتخذ شكل العَرَض يمكن وصفها عن حق بأنها «عودة المكبوت». وتكمن الصفة البارزة لهذه الظواهر فى التشوه الواسع المدى الذى مرّت به العناصر الزائدة، بالمقارنة إلى شكلها الأصلى. وربما يثار اعتراض هنا من أنه فى هذه المجموعة الأخيرة من الوقائع انحرفتُ كثيراً عن التشابه مع التراث. ولن أحس مع ذلك بأى أسف إذا كان ذلك قد قرّبنا أكثر من مشاكل نبذ الغرائز.

✠ ✠ ✠

-٨-

الحقيقة التاريخية

لقد لجأت إلى كل هذه الاستطرادات السيكولوجية كى أدلل على أن ديانة موسى لم

تؤثر على الشعب اليهودى إلا عندما صارت تراثاً، غير أن ماأحرزته من ذلك لايعدو احتمالا، ومع ذلك فلنفترض أننا قد نجحنا فى إثبات ذلك بشكل قاطع، فإن الانطباع مع ذلك أننا قد أرضينا فقط العامل الكيفى لمهمتنا، وليس العامل الكمى كذلك. ويعزى لكل مايتعلق بصياغة ديانة من الديانات - وبالاخص الديانة اليهودية - جلال ومهابة لم تتناولهما حتى الآن أى من تفسيراتنا. ولابد أن لعنصر من العناصر دخلاً فى ذلك، ولابد أن هذا الغنصر ليس له مايشبهه تماما، فهو فريد فى بابه ويتمشى مع ما صدر عنه، أى أنه لابد أن يكون به مشابهة للدين نفسه.

ولنر ماإذا كنا نستطيع أن نقترب من موضوعنا من الجانب المقابل، فنحن نفهم أن الإنسان البدائى فى حاجة إلى إله بوصفه خالق العالم ورئيس قبيلته ومَنْ يُعنى به. ويحتل هذا الإله مكانه خلف الآباء الموتى الذين مايزال التراث لديه شئ يقصه عنهم. والإنسان فى العصور اللاحقة - فى عصرنا مثلا - يتصرف تصرفا مشابها. وهو يظل كذلك طفلياً ويحتاج إلى الحماية، حتى عندما يكبر إلى تمام نموه، يحس أنه لايستطيع أن يستغنى عن مساعدة إلهه. وهناك مسائل كثيرة لاتقبل النقاش، ولكن ليس من الميسور أن نفهم لماذا كان من الضرورى أن يوجد إله واحد، ولماذا يكون للتقدم من تعدد الآلهه إلى التوحيد كل هذا المعنى الطاغى. والحقيقة كما ذكرت من قبل أن المؤمن يشترك فى عظمة إلهه، وكلما زادت قوة الإله، كلما كانت الحماية التى بوسعه أن يضفيها عليه شيئا مضمونا. ولاتفترض قوة الإله مع ذلك افتراضا مسبقا أنه إله واحد : فكثير من الشعوب لم تمجد إلهها الأكبر أكثر إلا عندما كان يسيطر على مجموعة من الآلهه الأقل شأنا، ولم يكن يقلل من عظمته أن الآلهة الأخرى كانت توجد إلى جواره. وكان ذلك يعنى أيضاً التضحية ببعض من العلاقة الحميمة إذا صار الإله عالميا وكانت عنايته شاملة لكل البلاد والشعوب بالتساوى. وربما كان لنا أن نقول إن ضرورة اقتسام الإله مع الأغراب كان يستتبعها تعويض المؤمنين الأصليين عن ذلك باعتقاد أن هذا الإله يؤثرهم برضاه عن غيرهم، وربما كان معنى ذلك أن تصور الإله بوصفه واحداً هو خطوة للأمام فى طريق الروحية، ومع ذلك فلا ضرورة إلى المبالغة فى تقدير هذه النقطة.

والمؤمن يعرف طريقة يتدارك بها ملأ هذا الفراغ الواضح فى التعليل، وهو يقول إن فكرة الإله الواحد لها هذا التأثير الطاغى على البشرية لأنها جزء من الحقيقة الأبدية، التى

ظلت مخبوءة كل هذا الوقت الطويل، وكان عليها أن ترى النور آخر الأمر، وجرفت كل شئ أمامها. وعلينا أن نقر أن لدينا عنصراً من عناصر التنظيم يتناسب مع عظمة الموضوع، ويتناسب كذلك مع نجاح تأثيره.

وأحب كذلك أن أقبل هذا الحل. ومع ذلك فلدى شكوكى. وتقوم الحجة الدينية على مقدمات متفائلة ومثالية، فلم تظهر البصيرة الإنسانية نفسها فى مكان آخر أنها قد وُهبَت حاسة استبصار عالية جداً للحقيقة، لا ولم يظهر العقل الإنسانى أى استعداد خاص لتقبل الحقيقة. إن العكس هو الصحيح، فالتجربة التى يعرفها الجميع أن البصيرة الإنسانية تخطئ بسهولة جداً دون أن تشتبه أدنى اشتباه فى أنها قد أخطأت، وأنه لاشئ يدعو إلى التصديق الفورى أكثر مما يلتقى مع رغباتنا وأوهامنا فى منتصف الطريق - بصرف النظر عن الحقيقة، وهذا هو السبب الذى من أجله تحتاج موافقتنا إلى تعديل، وأنا كذلك أميل إلى أن أقول أن الحل الذى يقدمه المؤمن يحتوى على الحقيقة، وهى ليست مع ذلك الحقيقة المادية، ولكنها الحقيقة التاريخية. وإنى لأدّعى لنفسى الحق فى تصحيح التشويه المعين الذى أصاب هذه الحقيقة عند معاودة ظهورها، بمعنى أنى لاأعتقد أنه فى العصور البدائية كان يوجد شخص واحد كان من الضرورى أن يبدو عملاقا، وعندما ارتفع إلى مستوى الآلهة، عاد إلى ذاكرة البشر.

ولقد افترضنا أن ديانة موسى قد طرحت ونسيت جزئياً، وأنها فيما بعد فرضت نفسها على ملاحظة الشعب اليهودى بوصفها تراثا. وإنى لأتصور أن هذه العملية كانت التكرار لعملية أسبق عليها. وعندما أعطى موسى شعبه فكرة الإله الواحد لم تكن الفكرة جديدة كلية، لأنها كانت تعنى بعث الحياة فى تجربة بدائية جرت فى الأسرة الإنسانية وكانت قد نوت من الذاكرة الواعية للبشرية. وكانت للتجربة أهمية خاصة وأثمرت تغييرات بعيدة المدى فى حياة الإنسان، أو أنها على الأقل مهّدت الطريق لها، حتى لايسعنى إلا أن اعتقد أنها قد تركت أثراً دائماً فى الروح الإنسانية - شيئاً يمكن مقارنته بالتراث.

ولقد علمنا التحليل النفسى للأفراد أن مشاعرهم المبكرة التى تكونت لديهم فى وقت لم يكونوا فيه قادرين بعد على شئ، تفصح عن نفسها فيما بعد بشكل مزعج، مع أن هذه المشاعر نفسها لايذكرها صاحبها بشكل واع. ونرى أن نفس الشئ يسرى على التجارب المبكرة للبشرية. ونتيجة واحدة لذلك هى ظهور فكرة إله عظيم واحد. وينبغى أن نعترف بها

كذكرى - ذكرى محرفة حقيقة، ولكنها رغم ذلك ذكرى. وهى ذكرى لها صفة مزعجة، وببساطة ينبغى الاعتقاد فيها. وبمقدار مايبلغه التحريف الذى أصابها قد تسمى وَهْماً. وبمقدار ماتدفع من الماضى إلى دائرة الضوء ينبغى أن تسمى حقيقة. ويتضمن الوهم المرضى النفسى كذلك جزءاً من الحقيقة، وينبع اقتناع المريض من هذا ويمتد إلى كل البناء المزيف الوهمى الذى يحيط بالوهم.

وتحتوى الصفحات التالية على صورة مكررة، لايكاد ينكر التغيير الذى تناولها لما قلته فى القسم الأول. وفى سنة ١٩١٢ حاولت فى كتابى «الطوطم والمحرم» أن أعيد بناء الموقف القديم الذى خرجتْ منه كل هذه النتائج. وفى ذلك الكتاب استخدمت بعض الأفكار النظرية التى قال بها تشارلز دارون، و ج. أتكنسون، وبخاصة روبرت سميث[1]، وربطتها بالاكتشافات والأفكار المستخلصة من ممارسة التحليل النفسى. ومن دارون أخذت فكرة أن البشر عاشوا فى أول الأمر فى عشائر صغيرة، وكانت كل عشيرة تحت حكم ذكر أكبر سنا، وكان يحكم بالقوة الغاشمة ويستحوذ على كل الإناث، ويستعبد أو يقتل كل صغار الذكور بما فيهم أبناؤه هو نفسه. ومن أتكنسون أخذت فكرة أن هذا النظام الأبوى وصل إلى نهايته بتمرد الأبناء الذين اتحدوا ضد الأب وتكاثروا عليه وأكلوا جميعا جسمه. وقلت متابعاً نظرية روبرتسون سميث فى الطوطم أن هذه العشيرة التى كان يحكمها الأب سابقاً أعقبتها عشيرة أخوية طوطمية. ونبذ الإخوة المنتصرون، لكى يكون بوسعهم أن يعيشوا معا فى سلام، النساء اللاتى من أجلهن قتلوا الأب، ووافقوا على أن يتزوجوا من خارج عشيرتهم، وهكذا تبددت سلطة الأب، ودخل التنظيم الأسرى عن طريق النظام الأموى. وظل هناك إحساسان لدى الأبناء، يعارض كل منهما الآخر تجاه الأب، ويسيطران على الأبناء على مدى التطور اللاحق. وبدلا من الأب أعلن عن قيام طوطم من حيوان معين، حل محل جدهم والروح الحامية لهم، وماكان مسموحا لأحد أن يؤذيه أو يقتله. وكانت العشيرة تجتمع مرة كل عام تحتفل بطوطمها. وفى الاحتفال يقطع الطوطم المقدس قطعا ويؤكل، وماكان من المسموح لأحد أن يمتنع عن المشاركة فى هذا الاحتفال، وكان تكرارا مقدسا لاغتيال الأب، هذا الاغتيال الذى بدأ به التنظيم الاجتماعى والقوانين الأخلاقية والدين. وخطرت فكرة التشابه بين عيد الطوطم (طبقا لوصف روبرتسون سميث)، وبين المناولة

١- انظر هذه الأسماء فى هوامش سابقة. (الحفنى)

المسيحية لكثير من المؤلفين قبلى.

ومازال حتى الآن أعتقد فى هذه النتيجة الفكرية، وكثيراً ماوجه لى بحماس اللوم لعدم تغييرى أفكارى فيما تلا ذلك من طبعات لكتابى، طالما أن المزيد من علماء علم الإثنولوجيا المحدثين قد طرحوا بلا استثناء نظريات روبرتسون سميث، وأحلوا محل جزء منها نظريات أخرى تختلف عنها اختلافا واسعا. وإنى لأجيب على هذا العتاب بأنى أعرف جيداً هذا التقدم المزعوم فى العلوم، ولكنى لم أقتنع بصوابه ولابتخطئته لروبرتسون، وليس معنى التناقض دائما الرفض، ولايعنى قيام نظرية جديدة أنها بالضرورة علامة التقدم، ثم أنى مع ذلك لست من علماء علم الإثنولوجيا، ولكنى محلل نفسي، ومن حقى الكامل أن أختار من المواد التى يقدمها علم الإثنولوجيا مايخدم بحثى التحليلى، ولقد زودتنى كتابات روبرتسون سميث صاحب الموهبة الكبيرة بنقاط قيّمة تتصل بالمادة السيكولوجية للتحليل، وبأفكار تنفعها، ولاأستطيع أن أقول نفس الشئ عن نظريات خصومه.

✠ ✠ ✠

-٩-

التطور التاريخى

ولايمكننى هنا أن أعيد عرض محتويات كتاب «الطوطم والمحرم»، ولكنى يجب أن أحاول بيان الذى حدث فى الفترة الطويلة التى وقعت بين الأحداث التى أقترحت أنها حدثت فى العصور البدائية، وبين انتصار التوحيد فى العصور التاريخية. وبعد أن قام الترابط بين عشيرة الأخ والقبيلة الأموية والزواج من غير الأقارب والطوطمية، بدأ هناك تطور يمكن أن يوصف أنه «عودة بطيئة للمكبوت». ولايستخدم هنا اصطلاح «مكبوت» بمعناه التقنى. إننى أعنى هنا أنه شئ ماض، قد اختفى وأمكن التغلب عليه فى حياة الشعب، وهو ماأتجرأ على أن أعامله كمساوٍ للمادة المكبوتة فى الحياة العقلية للفرد. وليس بوسعنا الآن أن نصف الشكل السيكولوجى الذى وجد فيه الماضى خلال فترة الظلام التى عاش فيها. وليس من السهل ترجمة مفاهيم علم النفس الفردى إلى مفاهيم لعلم نفس جماعى، ولاأظن أننا نستفيد شيئا كثيراً بإدخال مفهوم اللاشعور «الجماعى» - فمحتوى اللاشعور على أى حال جماعى، وهو ملكية عامة للبشرية. ولذلك فإن استخدام التشبيهات أثناء ذلك يجب أن

يساعدنا على الفهم. والعمليات التى ندرسها هنا فى حياة شعب من الشعوب تشبه كثيراً تلك العمليات التى نعرفها من علم الطب النفسى، ومع ذلك فهى ليست نفسها تماما، وينبغى أن نخلص من ذلك إلى أن المتخلف العقلى من تلك العصور البدائية صار ميراثاً لايحتاج مع كل جيل جديد لمعاودة تحصيلة بل لإيقاظه. وقد نفكر هنا فى مَثَل رمزية الكلام، وتبدو تأكيداً كما لو كانت شيئاً نولد به. ومع ذلك فهى تنشأ أصلا فى وقت تطور الكلام، وهى شئ يألفه كل الأطفال دون الحاجة إلى أن يتلقوا تعليمات به. وهو نفس الشئ لدى كل الشعوب برغم الاختلافات فى اللغة. وما يمكن أن ينقصنا مع ذلك من الناحية اليقينية قد نحصل عليه من النتائج الأخرى لبحوث التحليل النفسى. ونتعلم أن أطفالنا فى عدد من العلاقات ذات الأهمية لاينفعلون تجاهها كما تؤدى بنا تجاربهم الخاصة أن نتوقع، ولكنهم ينفعلون تجاهها غريزيا كالحيوانات، وهذا لايفسره إلا ماينتقل بالميراث من صفات تتكون مع النشوء النوعى للأحياء.

وتسير عملية عودة المكبوت ببطء، وهى لاتحدث بالتأكيد تلقائيا، ولكن تحت تأثير كل التغيرات فى ظروف الحياة التى تكثر خلال تاريخ الحضارة. ولاأستطيع هنا أن أقدم مسحا للشروط التى تعتمد عليها، ولاأستطيع إلا أن أعطى إحصاءً يسيراً للمراحل التى تسير فيها عملية العودة. لقد صار الأب مرة أخرى زعيم الأسرة، ولكنه لم يعد صاحب السلطان المطلق مثلما كان الأب فى العشيرة البدائية. وفى المراحل الانتقالية الواضحة والمسلم بها طرد الإله الحيوان الطوطمى وحل محله، ولكن الإله وقد تشكل فى شكل إنسانى كان مايزال يحمل فى أول الأمر رأس حيوان، ثم من بعد ذلك دأب على أن يتشكل فى هيئة نفس الحيوان، ثم صار الحيوان من بعد مقدساً بالنسبة له ورفيقه الأثير، أو أنه اشتهر بذبحه للحيوان عندما أضاف اسم الحيوان إلى اسمه. وبين الحيوان الطوطم والإله ظهر البطل، وكثيراً ماكان ذلك فى مرحلة مبكرة من مراحل تقديس الآلهة. ويبدو أن فكرة الكائن الأعلى ظهرت مبكرة، وكانت فى أول الأمر فكرة ضبابية وخالية من أى ارتباط باهتمامات البشر اليومية. وأثناء عملية انضمام القبائل والشعوب معاً فى وحدات أكبر، نظمت الآلهة كذلك فى أسر ومراتب كهنوتية. وكثيراً ماكان يرفع أحدها ليكون كبيراً للآلهة والبشر. ثم اتخذت البشرية فى تردد الخطوة الثانية لعبادة إله واحد، وأخيراً تقرر التنازل عن كل سلطة لإله واحد فقط، وعدم قبول أى إله آخر إلى جواره. وحينئذ فقط أعيد مجد

الأب البدائى، وكان من الممكن أن تتكرر العواطف التى تدور حوله.

وكان الأثر الأول للاتحاد من جديد بما افتقده البشر وتمنوه من زمن طويل، قوياً لدرجة كبيرة، وكان صورة طبق الأصل لما يصوره تراث نزول الشريعة على جبل سيناء. وكان هناك إعجاب ورهبة وامتنان من أن الشعب نال الاستحسان فى عين الرب. ولاتعرف ديانة موسى إلا هذه المشاعر الإيجابية تجاه الإله الأب. وكان اقتناع الابن العاجز المرعوب من سلطة الأب التى لاراد لها فى القبيلة، والخضوع لإرادته كاملا، ماكان من الممكن أن يكون هذا الاقتناع وذاك الخضوع بشكل أكثر اكتمالا عما كان عليه هنا مع الشعب اليهودى. والحق أنهما ولم يصبحا شيئا يمكن إدراكه بشكل تام إلا بالتحول داخل الوسط البدائى الطفلى، فالمشاعر الطفلية أكثر عنفا وأبعد عمقا لاينضب من مشاعر البالغين، ولاسبيل إلى استعادة هذا العنف فى المشاعر إلا بالحماس الدينى، ومن ثم كان تحول الولاء هو أول استجابة للعودة إلى الأب العظيم.

وهكذا تحدد اتجاه هذه الديانة الأبوية للأبد، ولكن تطورها لم ينته عند ذلك، فتكافؤ الضدين ينتمى إلى جوهر علاقة الأب بالإبن، فقد كان يحدث أن تثار عبر الزمن العداوة التى دفعت الأبناء أن يذبحوا أباهم الذى يكنون له فى أنفسهم الإعجاب به والخشية منه. وفى ديانة موسى نفسها لم يكن هناك مجال للتعبير المباشر عن الكراهية القاتلة للأب. وماكان من الممكن أن يظهر فيها إلا رد فعل قوى لهذه الكراهية : الشعور بالذنب بسبب تلك الكراهية، وتأنيب الضمير لأن صاحبه قد أثم فى حق الإله واستمر فى إتيان الإثم. وهذا الشعور بالذنب الذى أبقاه الأنبياء حياً باستمرار، والذى سرعان ماصار جزءاً لايتجزأ من النظام الدينى نفسه، كان له دافع آخر سطحى أخفى بذكاء الأصل الحقيقى للشعور، فقد صادف الشعب أوقاتاً عصيبة، وكان تحقق الآمال المقصورة على استحسان الإله لهم تحققاً بطيئاً، وصار من غير السهل الاستمرار فى الاعتقاد فى الوهم الذى كانوا يحبونه فوق كل شئ آخر، بأنهم شعب الإله المختار. وإذا كانوا راغبين فى البقاء سعداء فإن الشعور بالذنب حينئذ لأنهم هم أنفسهم كانوا خُطاةً على قدر كبير، يقدم عذراً مقبولا لقسوة الإله. ولم يستحقوا شيئاً أفضل من أن يكون الإله هو الذى يقوم بمعاقبتهم لأنهم لم يراعوا شرائعه. ودفعتهم الحاجة إلى إرضاء هذا الإحساس بالذنب، الذى ينبع من مصدر أشد عمقا ولايمكن إشباعه، دفعتهم إلى جعل شرائعهم الدينية أصلب فأصلب دائما، وأكثر دقة، ولكنها أقل شأنا. وفرض اليهود دوماً على أنفسهم شعوراً متجدداً بمتعة الزهد طرحاً

للغرائز، وبذلك وصلوا - على الأقل من ناحية المذهب والشرائع - إلى سوامق أخلاقية ظلت بمنأى عن تناول الشعوب القديمة[١]. ويعتبر الكثير من اليهود هذه التطلعات السمة الثانية الكبرى، والمنجز الثانى لديانتهم. ويهدف بحثنا إلى بيان كيفية ارتباطها بالسمة الأولى، وهى فكرة الإله الواحد الأحد. ولايمكن مع ذلك إنكار خروج هذه الأخلاقيات من المشاعر بالذنب الراجعة إلى العداء المكبوت للإله. وهو عداء من صفةٍ نألفها فى ردود الفعل للعصاب الحصرى[٢].

والتطور اللاحق يتجاوز اليهودية. والعناصر الأخرى التى تعاود الظهور من خلال الدراما التى تدور حول شخص الأب البدائى لم يكن هناك سبيل إلى التوفيق بينها وبين الديانة الموسوية. ولم يعد الشعور بالذنب فى ذلك العصر مقصوراً على اليهود، فكان قد تملك كل شعوب البحر الأبيض كشعور غامض يقلقهم، ونذير سوء طالع يتوقعونه، ولاأحد يدرى له سببا. ويصف التاريخ الحديث الثقافة القديمة بأنها قد شاخت، وإنى لأستنتج أنها ثقافة لم تدرك إلا بعض الأسباب العارضة الثانوية وراء المزاج الهابط الذى سار وقتذاك بين الشعوب. وجاء تخفيف ذلك الضيق ابتداء من اليهود. ورغم أن تلك الفكرة نفذت على إشارات موحية كثيرة من مصادر مختلفة، فإن إدراكها لم يبزغ كالفجر إلا لعقل يهودى يُدعى شاول الطرسوسى الذى تسمى فيما بعد ببولس عندما صار مواطنا رومانيا، حيث قال «لأننا قتلنا اللّه الأب فإننا فى غاية التعاسة». ويتضح الآن لنا تماما سبب أنه لم يستطع أن يدرك هذه الحقيقة فى أى شكل آخر سوى هذا الشكل الوهمى المقّنع، الذى يحمل فى طياته أخباراً سارة، حيث يقول :«لقد تخلصنا من كل ذنب منذ أن وهب واحد منا حياته ليكفر عن ذنبنا». وفى هذه الصيغة لم يذكر طبعاً مقتل الإله، ولكن الجريمة التى يقتضى التكفير عنها بالموت الكفّارى، لايمكن إلا أن تكون جريمة قتل. وعلاوة على ذلك،

١- النغمة العنصرية واضحة من جديد، رغم الحقيقة التاريخية التى تحدث عنها فرويد نفسه، والتى تدمغ اليهود بالدنيوية والدونية ويقول فيها القرآن «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون». (الآية ٧٥ سورة البقرة)، «أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون» (الآيات ٨٧ و٨٨ سورة البقرة) وشبيه به كلام كثير تحفل به التوراة نفسها ويناقض فرويد. (الحفنى)

٢- العصاب الحصرى Obsessional neorosis : عصاب نفسى يتميز المريض به بالدوافع والأفكار الحصرية أو التسلطية. (الحفنى)

فإن الارتباط بين هذا التصور وبين الحقيقة التاريخية قد تم عقده بتأكيد أن الأضحية الكفّارية هى ابن الإله. ومكنت القوة التى استمدها هذا الإيمان من التغلب على كل العوائق، وفى مكان الشعور الفياض بالنشوة بأنهم هم الشعب المختار، حلّ الآن انعتاق بواسطة الخلاص. وكان على جريمة اغتيال الأب عند معاودة ظهورها فى ذاكرة البشرية أن تتغلب على عوائق أعظم من العائق الذى شكل جوهر التوحيد، فقد كان عليها أن تمر بتحريف أوسع. وحلت عقيدة تقوم على إدراك غامض نوعاً ما للخطيئة الأصلية محل الجريمة التى ماكان أحد يجرؤ على ذكرها.

وصارت الخطيئة الأصلية، والخلاص بالموت الكفّارى أساس الديانة الجديدة التى أرسى بولس قواعدها. والسؤال عما إذا كان هناك زعيم ومحرض على الجريمة بين عشيرة الإخوة الذين تمردوا على الأب البدائى، أو ماإذا كانت تلك الشخصية قد أبدعها من بعد الشعراء الذين تمثلوا أنفسهم فى البطل، ومن ثم اندمجوا فى التراث، ينبغى أن يظل بلا جواب، فبعد أن فجر المذهب المسيحى أسوار اليهودية فإنه استدخل مكونات أخرى من مصادر أخرى كثيرة، ونبذ الكثير من سمات التوحيد الخالص، واقتبس فى تفاصيل كثيرة الطقوس الدينية لشعوب البحر الأبيض الأخرى. وكان كما لو أن مصر قد توصلت إلى أن تنزل انتقامها بورثة أخناتون. وإن الطريقة التى توصلت بها الديانة الجديدة إلى التوافق بين الصفتين المتعارضتين والمتكافئتين القديمتين اللتين تتصف بهما علاقة الأب - الإبن لجديرة بالملاحظة، وكان المبدأ الأساسى الذى تبشر به هذه الديانة هو التأكيد على مصالحة الإله الأب والتكفير عن الجريمة التى ارتكبت فى حقه، ولكن الجانب الآخر من العلاقة أبان عن نفسه فى الإبن الذى حمل الذنب على كتفيه فصار إلها هو نفسه إلى جانب الأب، وفى الحقيقة فى مكان الأب. وتحولت المسيحية - وهى أصلا ديانة أب - إلى ديانة إبن، ولم يكن فى وسعها أن تفلت من قدرها فى الإحلال محل الأب.

ولم يقبل المذهب الجديد إلا جزء من الشعب اليهودى. والذين رفضوا قبوله لايزال أغلبهم يهوداً. ومن خلال هذا القرار لايزالون معزولين عن بقية العالم بشكل أكثر عن ذى قبل. وكان عليهم أن يحتملوا اتهام الجالية الدينية الجديدة - التى بالإضافة إلى اليهود كانت تضم مصريين ويونانيين وسوريين ورومانيين - بأنهم قتلوا الإله. ويعنى هذا النقد فى صيغته الكاملة : أنهم لن يعترفوا بأنهم قتلوا الإله، بينما نحن نعترف بذلك وقد تطهرنا من

ذنبه[1]». ومن ثم فمن السهل فهم أى نوع من الحقيقة يكمن خلف هذا الاتهام. وقد يكون سبب عجز اليهود عن المشاركة فى التقدم الذى يشير إليه هذا الاعتراف بقتل الإله (برغم كل التحريفات التى اعترته) موضوعاً لبحث خاص. ومن خلال ذلك العجز احتمل اليهود، إذا جاز التعبير، ذنبا مأساويا، وكتب عليهم أن يقاسوا بسببه بشدة.

✠ ✠ ✠

وربما كان بحثنا قد ألقى بعض الضوء على المسألة التى يثيرها الكتاب، وهى الصفات التى تميز الشعب اليهودى. وأما مشكلة استطاعتهم الاستمرار فى الحياة حتى اليوم كمجموعة لها وجودها المستقل، فقد ثبتت صعوبة حلها[2]. ولانحسب أن فى الوسع المطالبة بإجابات مستفيضة لمثل هذه الألغاز أو توقعها، وكل مايمكن أن أقدمه هو مساهمة بسيطة ينبغى الثناء عليها مع الاعتبار الواجب للحدود النقدية التى سبق أن ذكرتها.

[تـــم الكتـــــــاب]

١- لاحظ كيف يقلب فرويد التهمة من اليهود على غير اليهود مستخدماً أساليبه فى التحليل النفسى، ولاحظ كيف يسوق الكلام سوقا ويصوغه صياغة، وهو نفس مايتبعه علم الدعاية اليوم. (الحفنى)

٢- هنا نعثر على السلبيات التى تميز بها اليهود، ولذلك يرفض فرويد أن يساق إلى الخوض فيها، وخاصة أنها لن تمده بدفوع يدفع بها عن اليهود ويتهم بها غير اليهود، ولأنه يرفض دخول ميدان سيتخذ فيه موقف المدافع فقط، وليس موقف المهاجم. (انظر كتابنا عالم بلا يهود). (الحفنى)

كتب للدكتور الحفنى

المترجمات :

١- ليوناردو دافنشى لفرويد

٢- مافوق مبدأ اللذة لفرويد

٣- الحرب والحب والحضارة والموت لفرويد

٤- المتمرد لكامى

٥- أسطورة سيسيف لكامى

٦- مسرحيات العادلون وسوء تفاهم والحصار لكامى

٧- مسرحيات لسارتر سجناء ألطونا والشيطان والرحمن والممثل كين أو العبقرية

٨- الوجودية مذهب إنسانى لسارتر

٩- الماركسية والثورة لسارتر

١٠- المادية والثورة لسارتر

١١- معنى الوجودية لجان فال.

١٢- رجال وفئران لشتاينبك

١٣- الأفواة اللامجدية لسيمون دى بوفوار

١٤- البوتقة لميلر

١٥- الماركسية والوجودية لسارتر

١٦- البغى الفاضلة لسارتر

١٧- دور الأدب والفن فى الاشتراكية لماركس

١٨- عالم بلا يهود لماركس وسارتر وآخرين

١٩- تاريخ حياة طاغية لسارتر

٢٠- موسى والتوحيد لفرويد

مؤلفات فى الفلسفة :

١- جان بول سارتر حياته وأدبه وفلسفته

٢- البير كامى حياته وأدبه وفلسفته
٣- فى النظرية الماركسية : المثالية والمادية
٤- تيارات ومذاهب فنية وأدبية جديدة
٥- معنى الوجودية
٦- معجم لاتينى فى المصطلحات الفلسفية
٧- المعجم الفلسفى : عربى إنجليزى فرنسى المانى لاتينى.
٨- موسوعة الفلسفة.
٩- الموسوعة النقدية للفسلفة اليهودية.
١٠- شخصيات قلقه فى الإسلام : رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين
١١- شخصيات قلقه فى الإسلام : عمر الخيام شاعر الرباعيات
١٢- الموسوعة الصوفية
١٣- معجم مصطلحات الصوفية
١٤- معجم مصطلحات التصوف المسيحى
١٥- التصوف اليهودى
١٦- بدائع الشعر الصوفى
١٧- التعريفات للجرجانى - تحقيق.
١٨- الكليات - لأبى البقاء تحقيق
١٩- قوت القلوب لأبى طالب المكى - تحقيق
١٩- البراهين العقلية على وجود الله والرد على المنكرين والملحدين والطبيعيين

مؤلفات فى علم النفس

١٨- موسوعة علم النفس والتحليل النفسى.
١٩- موسوعة علوم النفس.
٢٠- الموسوعة النفسية الجنسية.
٢٢- التحليل النفسى للأحلام.